الفصل الثاني

العلاقات المتوترة بين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى

العلاقة المعقدة

الجرح النازف

الهوية الإسلامية المفقودة

obeikandl.com

obeikandl.com

منذ مطلع القرن العاشر تقريباً وحتى نهاية القرن الثامن عشر استمرت العلاقة الإسلامية مع المسيحية الغربية بالتعقيد والمواجهات والتحدي والصراع على النفوذ، وكان ذلك شبه جرح نازف باستمرار لايهدأ ولاتقلّ حدّته.

كانت الأحداث شديدة العنف والدموية، نتجت عنها أحقاد عميقة متأصلة لم تخفّ حدّتها حتى يومنا هذا، نتعرف على بعض فصول ذلك التاريخ المؤلم ونرجو ألاّ يكون محفزاً عند البعض لتعميق الكره تجاه الأوروبيين، فنحن نكشف عن الحقائق بهدف صيانة وتصحيح تلك العلاقة التي أصبحت عقدة حقيقية لابهدف تعميق الخلاف الغربي الإسلامي:

- استمرت الحروب والإقتتالات بين الطرفين وخلالها كان الجانبان يخسران الأرواح الكثيرة.

- استمرت أعمال القرصنة من الجانب الغربي المسيحي، حيث كانوا يختطفون أعداداً من المسلمين نساء ورجالاً ويجعلونهم عبيداً، فانتشرت تجارة العبيد المسلمين في أوروبا.

- كان يلزم العبيد بالتنصير وبترك الإسلام.

- في المقاطعات المسلمة الإسبانية قام المسيحيون بإبادة المسلمين وأجبر الناجون على اعتناق المسيحية، وبعد قرون جرى استعباد هؤلاء وتهجير وإبادة من ثبت أنه مازال يخفي إسلامه. وبالطبع فقد استمر الإسلام خفياً في قلوب الكثير من الناجين، ومع تشكل النظام الغربي الحديث أصبح الإسلام بالنسبة لأولئك (المسلمين القدامى) هو الهوية المفقودة والممنوعة والتي توجب عليهم إخفايؤها خشية الإبادة.

- مازال في الغرب حتى يومنا هذا عائلات ومجتمعات صغيرة تعتقد بأنها منحدرة من أصول إسلامية ومازال هؤلاء عاجزين عن العودة إلى دينهم الهوية المفقودة.

- في العقود القريبة الماضية كان المسلمون لايمتلكون قدرة ولا حضوراً عالمياً يمكنهم من الترويج لدينهم ومن نصرته ومن الدفاع عن حقوق أولئك المسلمين المحرومين من العقيدة. بينما في السنوات الأخيرة تطورت الأحداث كثيراً، وأصبح

الإسلام حاضراً في أنحاء العالم كله، وهذا الحضور مكّن الأوروبيين الذين يميلون نحو الإسلام من التحرر الحقيقي من ربق العبودية الغربية لهم. فانطلقوا يعلنون أسلمتهم باندفاع كبير وبرغبة عارمة: ومن الطبيعي أن نجد منهم أشخاصاً تفوق عطاءاتهم للدين الإسلامي كل مانقدمه ونمنحه نحن العرب المسلمين لهذا الدين الحنيف.

- انتشرت ظاهرة الأسلمة في الغرب لأن الغربي تحرر من الربق الفكري، وشاعت هذه الظاهرة بقوة، فجامع باريس يعلن في كل يوم عن عشرات وربما عن مئات من الذين يعتنقون الإسلام. وتجري الأسلمة بدون مساهمات وسعي يذكر للعرب والإيرانيين والأتراك وغيرهم. ورغم ذلك فبإمكان هؤلاء المساهمة في دعم هذه الأعمال، وستفيد مساهماتهم في تسريع هذه الظاهرة التي هي تسير بمفردها بشكل آلي.

- مما تقدم يثبت للبشرية كلها أن الإسلام يمتلك خاصية ليست موجودة إلا فيه هو فحسب: وهي أنه دين لايمكن العبث فيه ولايمكن محوه من القلوب ولايمكن إبادته، فبعد حوالي عشرة قرون من مجازر الغرب التي حاولت إبادة الإسلام الغربي نهائياً عاد الإسلام إلى الغرب مزهواً، وبقي أحفاد المسلمين الغربيين يحنّون لدين أسلافهم حتى بدأوا اليوم يرون النور ويعلنون عن عودتهم للهوية التي حرموا منها.

- يعود الفضل في ظاهرة أسلمة أوروبا اليوم إلى كثير من المسلمين، وإلى أحداث عديدة قلبت التاريخ وجعلته يميل لصالح المسلمين، وقد يراها البعض منا أحداثاً تسيء إلى الإسلام: نذكر من تلك الأحداث ثورة الإمام الخميني والأسلمة الجديدة لدولة كانت علمانية، وظاهرة حزب الله في لبنان. وظاهرة حركة حماس في فلسطين وظاهرة الأحزاب الإسلامية في بلدان المغرب العربي. وحديثاً سيكون لانتصار المسلمين في تركيا وفي قدرتهم على محاكاة العالم كله بلسان علماني وحضاري وإسلامي سيكون لهم تأثير كبير على دفع عجلة أسلمة أوروبا.

انتشار واسع للإسلام في العصور الوسطى

وجدت هناك مناطق، منذ بداية القرن الثامن حتى نهاية القرن الخامس عشر، تحت حكم السلاطين المسلمين حيث كان الإسلام على مر العصور يشكّل دين الأغلبية. إلى جانب الأندلس، وكانت تلك أيضاً حالة العديد من جزر البحر المتوسط والثغور الإسلامية الصغيرة في كل من جنوب فرنسا وإيطاليا.

وقد استطاع الأوروبيون في العصور اللاحقة تنصير تلك المناطق وإخضاعها لنفوذهم حتى يومنا هذا، لكنّ الجذور العربية والإسلامية والتأثيرات الثقافية والدينية بقيت ماثلة في الغرب حتى يومنا هذا:

ففي اللغة الفرنسية يمكن إحصاء عدد الكلمات التي هي من أصول عربية أو إسلامية والتي تقارب خمسة آلاف كلمة على أقل تقدير. ويجدها الباحث في القواميس الفرنسية المعاصرة كلها حيث يشار عادة للكلمة التي هي من أصل عربي بمصطلح Ar.

سكان جزر البحر المتوسط التابعة لفرنسا وإيطاليا وإسبانيا مازالوا يستخدمون فيضاً هائلاً من الكلمات العربية، بل لبعض هذه الجزر لغة محكية خاصة بها هي لغة مشتقة عن العربية التي مزجت للضرورة بلغات أوروبية.

اللغة الإسبانية هي الأكثر تأثراً بالعربية وتحوي عشرات الآلاف من المصطلحات والأسماء والصفات التي هي مشتقة عن العربية.

تاريخ الإسلام في غرب أوروبا باعتباره دين الأقلية

إن هذا التاريخ يبتدئ حوالي مستهل القرن التاسع، في الوقت الذي قرر فيه الحكام المسيحيون، خاصة في شبه الجزيرة الإيبيرية، عدم الاستمرار في قتل أسرى الحرب المسلمين بل استخدامهم كعبيد بدل ذلك. مع بداية القرن الحادي عشر ازدادت هذه الظاهرة حجماً بشكل بارز، حيث تواجدت في البلدان المسيحية لشبه الجزيرة الإيبيرية وفي إيطاليا وجنوب فرنسا وكذا في صقلية وجزر البليار، أعداد متباينة من المملوكين والأسرى المسلمين. إن وجود هؤلاء في هذه المناطق إلى حدود

obeikandl.com

القرن التاسع عشر وإلى غاية إلغاء العبودية يمكن إثباته عن طريق الوثائق. وإن تاريخ هؤلاء العبيد والأسرى المسلمين يتميز بطابع إجبارهم على التنصير والاندماج التام في المجتمع المسيحي.

بالنسبة لبعض مناطق شبه جزيرة إيبيريا شكلت مرحلة ما بين بداية القرن الثاني عشر والسادس عشر مرحلة خاصة. لما وضع الحكام المسيحيون في الشمال أيديهم على عدد كبير من مناطق إسبانيا المسلمة، منحوا لأسباب عملية نوعاً من الحرية الدينية والحماية للجاليات الإسلامية المتبقية في مناطق سيادتهم، بالرغم من أن الكنيسة لم تكن سعيدة بهذا الأمر، يدل على ذلك أنها مثلاً وافقت في مجمع فيينا سنة ١٣١١ على حظر كل تظاهرة للطقوس الإسلامية، كالآذان مثلاً من فوق مآذن المساجد. إن هذه الأقليات المسلمة المعترف بها رسمياً في إسبانيا المسيحية استمرت في وجودها قليلاً بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢. بعدئذ أجبرت على التنصير بشكل جماعي، حيث أطلق على أعضائها تسمية "الزنادقة غير المهتدين" وتم إبعادهم مع بداية القرن السابع عشر إلى إفريقيا الشمالية ومناطق الخلافة العثمانية. غير أن هذا الأمر لم يضع في الحقيقة حداً لتواجد العبيد المسلمين في أوربا الغربية بما في ذلك إسبانيا.

المسلمون الأسرى حسب المصادر الإسلامية

غالبا ما تشير المصادر الإسلامية إلى المسلم الذي أسره المسيحيون باستعمال لفظة أسير. وقد أطلق هذا الاسم أيضاً على الأسرى الذين تم بيعهم وسقطوا بذلك في العبودية الحقيقية حسب وجهة النظر القانونية الغربية. إن هذا المس بالوضعية الشخصية للأسرى المسلمين لم يتم الاعتراف به البتة في الشريعة الإسلامية، بل على العكس ظل الأسير يتمتع مبدئياً بكامل حقوقه، الأمر الذي كانت تنتج عنه مشاكل في ميدان أحكام الزواج مثلاً. إن الفقهاء المسلمين واجهوا من بين ما واجهوه قضايا ناتجة عن الفصال الاضطراري بين الزوجين. هل يمكن للزوجة التي

يوجد زوجها أسيراً خلال سنوات عديدة في مكان مجهول عند الروم أن تطلب الطلاق مثلاً.

إن القضية الإسلامية التي كانت تواجه المرء في الحقيقة هي تحرير الأحبة والإخوة المسلمين من العبودية وكذا السهر على عودتهم سالمين إلى البلاد الإسلامية. أما أفضل سبيل إلى ذلك فكان عن طريق الفداء. وقد كان الإسلام يعتبر هذا الأمر بمثابة مسؤولية ملقاة على عاتق الجماعة الإسلامية، كما كان يستعان أيضاً من بيت مال المسلمين. في حالات أخرى كان الناس يلتمسون من السلطان تبادل الأسرى المسيحيين بإخوانهم المسلمين في البلاد المسيحية بدل إطلاق سراحهم مقابل المال. كما كانت تنظم أيضاً بأمر من السلطات جمع التبرعات في المساجد.

إن تدخل السلطات في تحرير الأسرى المسلمين جعل القضية من الشؤون الحكومية. هناك بالطبع عدد كبير من أمثلة الافتداء أو تبادل الأسرى نتيجة جهود البعثات الخاصة أو في إطار الاتفاقيات الدولية. إلا أن تحرير الأسرى والسهر على عودتهم سالمين على يد السلطان كان يزيد من عظمة هذا الأخير. هكذا نجد مثلاً مؤرخ الخليفة الموحدي "أبو يعقوب يوسف" من القرن الثاني عشر يثني عليه ثناءً كبيراً لأنه افتدى سكان إشبيلية الذين وقعوا أسرى في أيدي الجيوش القشتالية: "وأنقذهم من ربقة عبودية الكفر إلى حرية الإسلام". بمعنى آخر أنقذهم من التنصير وتسميتهم بالأسماء المسيحية التي كانت غالباً ما تلي أسرهم ومن ثمة عبوديتهم.

من البديهي أن تبادل الأسرى كان فيه عزاء وسعادة لأولئك الأسرى الذين لم يساقوا بعد إلى أسواق العبيد. كانت هذه حالة المحظوظين البارزين من الأسارى الذين كانوا يوضعون بعد عملية تصفية أولى، تحت تصرف الملوك المسيحيين قصد استخدامهم والمتاجرة بيهم. في حين أن الأغلبية العظمى من الأسرى كان يتم توزيعها خفية بأسرع ما يمكن حول أسواق العبيد، ومن ثم يتم التوزيع على الصعيد الدولي.

إلى جانب الاهتمام الرسمي للسلطات الإسلامية، كانت هناك أيضاً مبادرات فردية أدت إلى إحداث وظيفة خاصة عرفت "بالفكّاك". إن الفكّاك غالباً ما يكون تاجراً وصاحب علاقات دولية يستعد أيضاً للسهر على افتداء الأسرى خلال رحلاته

التجارية. هكذا كان يعقد العقود مع المالكين الأحرار لأجل افتداء أسرى معينين من البلاد المسيحية مقابل مبلغ مالي محدد. إن نشاطات هؤلاء الفكّاكين معروفة أيضاً من خلال المصادر الأوروبية. هكذا كان في العام ١٤٠٧ علي الغرناطي المسلم يستقر في منطقة Roussillon جنوب فرنسا قصد افتداء الأسرى المسلمين.

في البلاد المسيحية ظهرت هناك المؤسسة الموازية المعروفة بالفكاك Alfaqueque المقابل الطبيعي لمصطلح الفكاك في العربية. لقد كان الفكاكون غالباً من اليهود الذين يتحملون مسؤولية مرافقة الأسارى إلى البلاد الإسلامية، وفي طريق عودتهم يرافقون الأسارى المسيحيين إلى البلاد المسيحية. مما لا ريب فيه أن الحكام المسيحيين بسبب المعارك والحصارات التي تستنزف خزائن أموالهم كانوا لا يترددون في بيع أسارى الحرب مباشرة مقابل مبلغ من المال.

إن الأقليات الإسلامية التي كانت تعيش تحت حكم النصارى في إسبانيا كانت أيضاً تعمل جاهدة قصد تحرير الأسارى المسلمين من عبوديتهم. إن العبيد المحررين كانوا ينضمون أحياناً إلى الجماعات الإسلامية المحلية التي عرفت في بعض الأحيان كيف تستهوي بعض المحررين من بين العلماء. وقد كان هؤلاء يشكلون حافزاً جديداً للدفع بحركة دراسة الإسلام بين هذه الجماعات التي كان مستواها في العلوم الإسلامية جد منخفض.

من الطرق الأخرى التي كانت تؤدي إلى الافتداء ما كان مبنياً على الجهود التي يبذلها الأسير نفسه. هذا يعني أن الأسير كان يحاول بشتى الطرق جمع المبلغ المالي الذي يتطلبه تحرير رقبته. هكذا نقرأ في وثيقة لعام ١٣٠٣ عبارة عن تصريح لقاضٍ مسلم إلى أسيرين مسلمين يرخص لهما أخذ الزكاة من الجماعات الإسلامية في مملكة بلنسية تحت حكم ملك أراغون، قصد جمع المبلغ المالي لافتداء أنفسهما. في بعض الحالات وخاصة عندما يكون المالك شديد التعلق بوداد وإخلاص عبده، كان الأسير يكتسب هذا المبلغ المالي عن طريق عمل مشرف أو ممارسة محكمة لصنعة ما خلال مدة معينة. مما يتبادر إلى الذهن بداهة أن رجال المهن وكذا النخبة المثقفة، التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً، كانوا يحظون دون غيرهم

بمعاملة امتيازية. إلا أن اعتبارات عديدة ذات طبيعة اقتصادية وجغرافية كانت تلعب دورها في هذا المجال، ففي جزر البليار مثلاً حيث فرار الأسير يعد من المستحيلات، كان الأسارى المسلمون الذين يؤتى بهم من مكان آخر يسعون بأنفسهم إلى اكتساب حريتهم. إن الاعتقاد كان سائداً أن العبيد الذين كانوا يتواجدون في مثل هذه الظروف كانوا يجهدون أنفسهم أكثر. علاوة على ذلك لم يكونوا في حالتهم هذه يحتاجون إلى الحراسة الدائمة والثمينة.

من المبادرات الأخرى التي كان الأسير يحاولها المراسلة مع عائلته في موطنه حيث يطلعهم على مكان وجوده وكذا المبلغ المالي الذي هو في حاجة إليه لافتداء نفسه. من الأمثلة الخاصة لمثل هذه المراسلات رسالة بعث بها ابن برطلة الخطيب المشهور من مدينة مرسية، الذي أخذ أسيرا من طرف النصارى في القرن الثالث عشر. خلال أسره نظم هذا الخطيب قصيدة على بحر الرجز موجها فيها نداءه إلى عطف وشفقة إخوانه المسلمين. وقد أطلق على قصيدته هذه: "*ذكرى المتفجعين وبشرى المسترجعين*".

في حالات عدم توفر المبلغ المالي الضروري كانت بعض العائلات تجعل أحياناً ولداً لها رهناً حتى يجمع الأب المسرح ذلك القدر المالي الذي طلب منه. وكما هو العادة كان الفقهاء يواجهون بمثل هذه القضايا عندما يطرأ مشكل ما. إن الابن الرهينة في حالة وفاة أبيه قبل جمع القدر المالي لتحريره، كان يشترط تحريره من ممتلكات أبيه قبل تقسيم ميراثه. بالإضافة إلى ذلك كان يحدث تفادي أسير مهدد بتقديم الأبناء كرهينة. إن الفقهاء كانوا يحكمون على جميع سكان حصن تخلصوا من الأسر عن طريق تقديم الأطفال كرهائن، أن يساهموا كل على حسب إمكانيته لجمع المقدار الذي يتطلبه افتداء كل الأطفال الرهائن .

رابطات فكّ الأسرى المسيحيين

من الجانب الأوروبي المسيحي ظهرت هناك مبادرات قصد فدية الأوروبيين الذين سقطوا في شرك العبودية في البلاد الإسلامية. وقد اهتمّت بهذه الأنشطة منذ القرن

الثالث عشر العديد من الجمعيات الدينية والرابطات اللائكية (خاصة الرابطات الجندية) التي ساهمت مراراً في عملية تبادل الأسرى والعبيد المسلمين في البلاد المسيحية بإخوانهم المسيحيين في البلاد الإسلامية. مع نهاية القرن الثالث عشر تأسست بمبادرة من يوحنا المتي (من مقاطعة بروفانس Provence بفرنسا) "جمعية الثالوثيين" Trinitaires كانت تستهدف تحرير وافتداء العبيد النصارى في البلاد الإسلامية. إن أعضاء الجمعية أعطوا عهدهم على تخصيص الثلث من ممتلكاتهم لفدية السجناء الأسرى. مع بداية القرن الرابع عشر أسست طريقة مريم الرحيمة في برشلونة لنفس الغرض أيضاً . من الحالات الاستثنائية في هذا المجال التدخلات الكتابية للصوفي الإفريقي الشمالي الحرّالي الذي توفي في دمشق ١٢٤٠. لقد بعث هذا الشخص إلى السلطات الكنسية في المدينة الإسبانية تركونة Taragona حيث يوجد عدد من أعضاء أسرته في الأسر، برسالة بديعة الأسلوب. في رسالته يصر الحرّالي على وحدة الجنس البشري: "فكتب إلى قسيس تركونة ليفك أسرهم ويزيل عنهم أسرهم: "بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله الذي خلق البشر من نفس واحدة وبرأ أبدانهم كلها من أديم الأرض الواحدة فجعلهم بالحقيقة ذوي رحم واحدة، لو تعارفوا حق المعرفة بما اشتركت فيه أبدانهم وانفردت بالنفس الواحدة نفوسهم وتحققت بروح الله أرواحهم، ما تقاطعوا ولا تسافكوا الدماء ولا تواثبوا تواثب الأسد على النعاج...." في هذه الرسالة يستدرج المؤلف زملاءه النصارى الإسبان للنظر إلى أبعد مما تسمح به الحدود الدينية المعروفة نافياً عن هذه الأخيرة معناها الديني الجوهري. إن الدعوة الدينية لإبراهيم الأب الأول لكل من الروم والعرب، تتبني في رأيه على أسس عميقة ومشتركة بين المسلمين والمسيحيين. إن الحرالي يستند في رسالته هذه ضمنياً على الموقف الصوفي من وحدة الوجود الذي يقول من بين ما يقوله إن الديانات التاريخية ما هي إلا تجليات ومظاهر لجوهر واحد مشترك بين الإنسانية جمعاء. إن الحرالي يقتفي هاهنا أثر معاصره المتصوف الأندلسي محي الدين بن عربي من مدينة مرسية. غير أن هذه الرسالة أثارت شعور قسيس تركونة الذي علق عليها قائلاً إن صاحبها قد تجاوز فيها الأسس الدينية. غير أنه في الأخير أطلق سراح أعضاء عائلة الحرالي.

ابتداع طرق روحية لفكّ الأسرى

بالإضافة إلى هذه الوسائل المادية التي أتينا على ذكرها كانت هناك طرق روحية أخرى مختلفة تماماً، تنتهج لفدية الأسرى خاصة عن طريق شفاعة الأولياء والصالحين الذين تنسب لهم في هذا المجال كفاءات خاصة. من ناحية كان الأمر يتعلق بمعجزات عرضية وطارئة تقوم بها شخصيات دينية معروفة خلال حياتهم. من جهة ثانية، كان هناك أولياء أصبحوا بعد وفاتهم "متخصصين" في حل مثل هذه الوسائل، بحيث لم يكن في استطاعتهم تحقيق افتداء الأسرى فحسب، بل كانوا يقومون بإجراءات وقائية لتلافي سقوط المسافرين في يد النصارى. وكما هو شأن كل الأولياء في كل زمان ومكان، كان هؤلاء الأولياء المسلمون، خاصة من خلال الحكايات التي تشاع عنهم والدعوات والصلوات التي توجه إليهم، يلعبون دور الأطباء النفسانيين أيضاً. إن تقديس الأولياء والحديث عن معجزاتهم كانت بالنسبة للأسير وكذا عائلته بمثابة عزاء وتسلية بحيث يجعلهم ذلك يفكرون على الأقل في إمكانية الخلاص بحدوث معجزة. إن أقدم مثل معروف لدينا حول هذا التدخل المعجز يتعلق بأحد أكابر العلماء القرطبيين المتوفى سنة ٨٨٩، ألا وهو المحدث والمفسر المشهور بقي بن مخلد.

يقال إن امرأة يائسة لم تكن تملك ما تفتدي به ابنها الأسير عند النصارى لجأت إليه مرفوقة بابنها وهو يتمتع بصحة جيدة. بعدئذ حكى الأسير قائلاً إن السلاسل الحديدية في كعبيه سرعان ما كسرت بحيث لم يستطع أحد من النصارى ولو من القساوسة إعادة القيد إلى مكانه. ولما أدركوا أنه يحظى بعناية ربانية خاصة تركوه حراً طليقاً بل رافقوه إلى الديار الإسلامية.

إن مثل هذه المعجزات تنسب إلى الصلحاء أيضاً من العصور اللاحقة. فمثلاً الزاهد الأندلسي الشريف من القرن الثاني عشر عرف كيف يرخي الأغلال الحديدية في رقبته وتمكن بعد ذلك برفقة صديق له من قطع مسافة، كان قد استغرق قطعها يوماً كاملاً خلال أخذهما أسيرين في البلاد المسيحية، في ساعات قليلة غير أن هذه المرة في الاتجاه المعاكس وفي الطريق إلى الحرية.

مما يحكى أيضاً أن الشاطبي، وهو من الصلحاء الأندلسيين من نفس المرحلة، صد مائة من الفرسان المسيحيين الذين راموا القبض عليه. وفي واقعة أخرى عرف كيف يغير اتجاه الرياح بكيفية جعلت سفينة مسيحية محملة بالأسرى المسلمين تتكسر في اليابسة بحيث تحرر الأسرى المسلمون ولقي المسيحيون ما يستحقونه من جزاء. كما كان الولي الأندلسي الشستري ينادي على الأسرى بحيث أن المنادى عليه كان من مكنته أن يحيى في البلاد الإسلامية في اليوم القادم.

من بين الأولياء المشهورين في مدينة سبتة على مضيق جبل طارق حيث كان القراصنة المسيحيون يضربون عادة عسسهم، ريحان الأسود. لقد كان هذا الشخص مقدساً خلال القرون الوسطى لدى الخاصة والعامة. كان اسمه في الحقيقة بمثابة رمز: ريحان الذي يعني الحبق أيضاً كان كثيراً ما يطلق على العبيد، كما أن لفظة الأسود تدل أيضاً على نفس المعنى. يقال إن زوجة ملاح أسر من طرف المسيحيين طلبت منه التدخل لافتداء زوجها. ولم يمر وقت طويل على دعاء الولي حتى عاد البحار عند زوجته سالماً. هكذا كان ريحان الأسود يعتبر الولي والحامي الأول للملاحين والمسافرين. من ثم أصبح قبره من أهم القبور التي يتعبد فيها في سبتة كما كان العلماء يعدون الدفن بجواره شرفاً عظيماً.

في فاس كان يعيش حوالي منتصف القرن السادس عشر الولي الصالح رضوان الجنوي نجل أحد الرعايا الجنويين الذي رحل إلى إفريقيا الشمالية أواخر القرن الخامس عشر واعتنق الإسلام. كان متزوجاً بامرأة يهودية دخلت أيضاً الإسلام. إن الكرامات التي تنسب إليه تتعلق ببركته في الاستشفاء وفي افتداء الأسرى والعثور على المواد المضاعة أو المسروقة أو العبيد الهاربين. عمل رضوان الجنوي جهده قصد تحرير أسرى الحرب بعد معركة وادي المخازن التي دارت بين المغرب والبرتغال. لقد أدان حينئذ السلطان المغربي المنصور عندما اختار تحرير الأسارى المسيحيين بالمال بدل استبدالهم بالأسرى المسلمين عند البرتغال. إن الروايات التي تشاع حول دور كل هؤلاء في فداء الأسرى تعبر عن التأثير المأساوي الذي لعبته هذه الظاهرة الشرسة في حياة الناس اليومية خلال القرون الوسطى.

الأسرى المسلمون العلماء

إن مجموعة خاصة من بين الأسرى المسلمين كانت تتشكل من نخبة صغيرة من المثقفين التي استخدمت لإنجاز بعض المهام الخاصة.

ويمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من العلماء حسب كفاءاتهم. في البداية كان رجال العلوم الدنيوية العرب مطلوبين بكثرة. إن الأطباء المسلمين مثلاً كانوا يباعون في أسواق العبيد بأثمنة باهضة وكانوا يحاطون بتقدير كبير من طرف السلطات العمومية. هكذا كانت السلطات المحلية لمدينة فيلافرنكا Vilafranca تتوفر على طبيب مسلم عبد متخصص في علاج أمراض العيون. ولما علم بذلك ملك اراغون بيدرو الرابع Pedro IV أمر حكام المدينة المذكورة كي يبعثوا بهذا الخبير إلى برشلونة لمدة محددة قصد معالجة أحد أعوانه المصاب بمرض خطير.

إن علوماً أخرى غير الطب كانت ممثلة في الأسارى المسلمين. مما لا ريب فيه أن أحسن نموذج في هذا المجال هو الجغرافي المغربي الوزان الفاسي الغرناطي الأصل. لما كان عائداً من رحلته إلى مصر عبر البحر سنة ١٥١٩ أسره القراصنة الصقليون وفي حوزته المسودات الدراسية التي كان قد وضعها خلال رحلاته حول إفريقيا. وعندما علم القراصنة بالقيمة الفريدة لغنيمتهم قدموه هدية إلى البابا ليون العاشر في روما الذي نصر العالم المسلم في سادس يناير ١٥٢٠ وسماه باسمه الخاص: يوحنا ليون. خلال هذه المرحلة الجديدة من حياته تعلم ليون الإفريقي اللغة الإيطالية كما ألف معتمداً على ملاحظاته الدراسية كتابه المعنون: *وصف إفريقيا* الذي ظل خلال عدد من القرون أهم مرجع جغرافي في أوربا فيما يتعلق بالعالم الإسلامي وخاصة إفريقيا المسلمة. في حوالي ١٥٥٠ سمح لليون الإفريقي بالرحيل إلى تونس. وقد درس قبل ذلك اللغة العبرية في بولونيا حيث ساهم في إعداد معجم عربي-عبري-لاتيني الأمر الذي يجعل منه أحد المهدين الأوائل لعلم تأليف قواميس اللغات السامية المقارنة.

إن فريقاً آخر من العلماء المسلمين الأسرى استخدم لنسخ المخطوطات العربية. لقد كان الناس في إسبانيا المسيحية في أمس الحاجة إلى النصوص العربية لممارسة الطب العربي مثلاً ودراسة الفلسفة العربية إلى جانب الاهتمام المتزايد من الجانب

الأوروبي لترجمة النصوص العلمية العربية. إن مساهمة الأسارى المسلمين خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر في نسخ المخطوطات العلمية العربية يمكن استخلاصها من خواتم هذه المخطوطات، بحيث أن هؤلاء النساخة لم يكونوا يختمون كتبهم بتاريخ الكتابة والتوقيع فقط، بل كانوا يضيفون إلى ذلك دعاءات يعبرون فيها عن رغبتهم في الخلاص وكذا وضعية الأسر التي يعيشون فيها.

من العبارات الواضحة في هذا الصدد ما كتبه ناسخ مسلم من برشلونة سنة ١١٦٦ حيث يتبع اسمه بالدعاء التالي: "فك أسره وارحم من قال آمين حين يقرأه". وفي مخطوط آخر يعود إلى سنة ١٢٢٧ من طليطلة يتبع ناسخ آخر اسمه بالدعاء التالي: "استنقذه الله لا رب سواه". وفي مخطوط آخر من نفس المرحلة أيضا يشير ناسخ مسلم بعد ذكر اسمه أنه يوجد أسيراً في طليطلة مختتماً بالدعاء التالي: "اطلق الله سبيله". إن هذا الناسخ الأخير المدعو يوسف بن محمد التنيوخي اللوشي حرر فعلاً من الأسر. وقد توفي سنة ١٢٦١ في غرناطة حيث دفن بمحضر من السلطان الذي كان عنده خطيباً وصاحب القلم الأعلى. إن كتب التاريخ العربية التي تتضمن نبذة عن حياته تذكر له أيضاً بعض الأبيات الشعرية يعبر فيها عن تجارب حياته. يقول:

ليس للمرء اختيار في الذي يتمنى من حراك أو سكون

إنما الأمـــــر لرب واحـد إن يشأ قال له كن فيكون.

في بعض الأحيان الأخرى يذكر الناسخون أسماء أسيادهم الذين هم في خدمتهم. يتعلق الأمر هاهنا دائما بأصحاب المكتبات اليهود المرموقين. هكذا كان هؤلاء الأسرى المسلمون ناقلو المخطوطات يلعبون دوراً وسيطياً في نشر العلوم والفلسفة العربية في العالم المسيحي خاصة في المرحلة التي بلغ فيها تأثير الثقافة العربية في أوربا الغربية أقصى مداه. فيما بعد القرن الثالث عشر أصبحت المخطوطات العربية المنقولة من طرف الأسارى المسلمين في الديار المسيحية نادرة جداً. فيما يخص القرنين الخامس عشر والسادس عشر لا نكاد نعثر إلا على بعض النسخ القليلة. من الجانب المسيحي كان هناك أيضاً اهتمام كبير بالأسرى المسلمين العلماء الذين خبروا العلوم الدينية. كانت دراسة الإسلام والعربية تعتبر من

الشروط اللازمة لتكوين المبشرين المكلفين بتبليغ تعاليم *الإنجيل* إلى الذين كان يطلق عليهم "الوثيون". لقد كان الرهبان الفرنسيسكانيون والدومينيكيون بالخصوص نشيطين في هذا المجال حيث أسسوا لأجل هذا الغرض مراكز تعليمية خاصة. ومن العلماء الذين لعبوا دوراً مهماً في هذا المجال العالم اللاهوتي الكتالوني ريموندس لولوس Raimundus Lullus الذي لقن مبادئ العربية والإسلام على يد عبد مسلم خلال سنين عديدة. يروي أن العالم العبد المسلم أنكر في حديث له مع لولوس ألوهية المسيح والأقانيم الثلاثة وفق تعاليم *القرآن*. حينئذ رد عليه لولوس بالاستهزاء بالنبي محمد صافعاً إياه على وجهه ورأسه وجميع جسمه. بعدئذ لم يجد العالم المسلم المغلوب على أمره إلا أن يتأسف على تعليمه العربية وتوضيحه *القرآن* والشريعة الإسلامية لريموندس لولوس. بعد محاولة فاشلة لقتل سيده وضع العبد المسلم في السجن حيث مات مخنوقا. إن هذه المأساة التبشيرية نجدها عند المتكلم اللاهوتي الكتالوني في سيرته الذاتية.

دور الأسرى في نشر الثقافة الإسلامية

إن هذا المثل للعالم العبد الذي كان في خدمة ريموندس لولوس ليس الوحيد من نوعه. إن العلماء المسلمين الأسرى المستخدمين كأساتذة لعبوا دوراً مهماً في الدراسة الأولى للعربية في أوربا الغربية المسيحية خلال القرون الوسطى المتأخرة. ومما يدل على ذلك دلالة واضحة في هذا الميدان وقائع حياة العالم التونسي أصلاً محمد بن خروف التونسي من القرن السادس عشر. لقد أخذ هذا أسيراً على يد الإسبان حيث انتهى به الأمر إلى أن يصبح مملوكاً في يد راهب أجبره على تعليمه كتاب المفصل المشهور في النحو للزمخشري. عن طريق وساطة العالم الفاسي المشهور أبو عبد الله اليسيتني عند السلطان الوطاسي حرره هذا الأخير من الأسر. حينئذ رافقه القس الإسباني الذي كان أحد الأنساب المقربين لحاكم مدينة غرناطة، إلى فاس قصد متابعة دراسته العربية على يده هناك.. غير أن العالم الفاسي المذكور اليسيتني كتب فتوى يحظر فيها هذه الدروس على الرغم من أن ابن خروف كان قد وعد

القس الإسباني بذلك قبل تحريره. وكحجة على ذلك أبان العالم المسلم أنه وفقاً للمذهب المالكي يمنع تعليم القراءة والكتابة بالعربية لغير المسلم، لأن هذا الأخير عن طريق معرفته بالعربية سوف يعمل على الطعن في كلام الله. لقد درس ابن خروف بعد افتدائه سنة ١٥٤٠ حتى وفاته علم الكلام وعلم الأصول والبلاغة. كما اكتسب شهرة واسعة في ميدان العلوم العقلية.

إن ريموندس لولوس وكثيرين غيره من المؤلفين صنفوا كتباً حول المناظرات بين علماء الدين المسيحيين وخصومهم العلماء المسلمين، كانت تستعمل ككتب دراسية في تكوين الطلبة المبشرين. بطبيعة الحال كان المناظرون المسيحيون يخرجون دائماً منتصرين في هذه المجادلات الكلامية! إن الكثير من الناس يعتقدون أن هذه الكتب الجدالية المناهضة للإسلام وليدة الخيال الأدبي، بمعنى أن هذه المحاورات التي تتضمنها تلك الكتب لم تجر في واقع الأمر.

ومن الطبيعي أن يكون شكل ومحتوى هذه النصوص في النهاية وليد غرفة الدراسة. إلا أن واقع اتخاذ العالم المسلم العبد كموضوع تجربة في المناظرات الدينية مع علماء الدين المسيحي ظاهرة معروفة. وهذا الأمر يبدو واضحاً من مجموعة من النصوص العربية المخطوطة كتبها هؤلاء العلماء المسلمون في غالب الأحيان بعد فديتهم وعودتهم سالمين إلى أوطانهم. في هذه النصوص نجد النصر حليف المجادل المسلم على خصمه النصراني! إن أقدم مثال على هذه المجادلات نجده عند الخزرجي المزداد بقرطبة ١١٢٥ الذي أخذ أسيراً عن سن تناهز ٢١ إلى طليطلة المسيحية حيث وجد نفسه مضطراً للدخول في نقاشات دينية بين قس وأقلية مسلمة محلية. لما علم القس بتدخل الخزرجي بعث إليه برسالة حاقدة حول عظمة المسيحية ودناءة الإسلام. إلا أن الخزرجي لم يجرؤ على الرد عليه في حينه ملتزما السكوت: "وامتنع من مراجعة القس تخوفاً منه لكونه يومئذ مدجناً بين أظهر القوم وفي قبة ديانتهم". ولما ألح عليه مسلمو تلك المدينة وكان وقت رحيله قد دنا، كتب رسالته في الرد على القس بعنوان: "*مقامع الصلبان في الرد على عبدة الأوثان*". إن العدد الكبير من المخطوطات المحفوظة من عمله هذا تشهد على الشهرة الكبيرة التي

كان يتمتع بها خاصة في شمال إفريقيا. إن مقدمة *رسالة الخزرجي* كما وصلتنا وضعها كاتب مجهول جمع فيها رسالة القس ورد الخزرجي عليه في كتاب واحد.

في مقاله "حول التسامح الديني وابن ميمون والموحدون" يقول الباحث المغربي بتشريفة مستنداً على كتاب المراكشي، الذي سيأتي ذكره: "ومن الغريب أنه –لما كان كفيفا- أملى كتابه المذكور في الأسر على مملوك له من أبناء الروم قد علمه الكتابة".

هناك استشهادات مفصلة محفوظة من نص لمؤلف يدعى عبد الله الأسير الذي كان يناظر حوالي نهاية القرن الثالث عشر من المحتمل في المدينة الفرنسية مونبولييه. وفي كتالونيا كان يناظر هناك حوالي سنة ١٣٠٩ الأسير التونسي الأصل محمد القيسي. إن كتابه الذي لم ينشر بعد يعتبر وثيقة تاريخية فريدة من نوعها. إن المؤلف الذي كان أعمى يقول إنه لما أراد تسجيل تجاربه في كتاب، لم يجد أحداً يأخذ عنه مهمة تحرير كتابه بالعربية: "لبعد ديارنا وانقطاعنا عن أهل ملتنا، لا طالب يطلب ولا كاتب يكتب".

أسير يحاور المسيحية

خلال القرن الخامس عشر كتب محمد الأنصاري الأندلسي مؤلفاً تحت عنوان: *"رسالة السائل والمجيب وروضة نزهة الأديب"* حيث خصص الفصل الأخير منه لمجادلاته التي خاضها في قشتالة خلال إقامته هناك كأسير. لقد قسم رده على المآخذ المسيحية حول الإسلام إلى ستة مجالس وقعت حسب ما يذكره في كل من شلمنقة، مجريط وشقوبية. أما الأشخاص الذين جادلهم فكانوا مثلاً من خدام البلاطات والأساقفة والرهبان والوعاظ والشمامسة.. إن المؤلف يذكر مثلاً أنه حضر محاضرة في جامعة شلمنقة. وبعد انتهاء المحاضرة خرج في رفقة الخطيب وقسيس الاعتراف الخاص بالملك عبر رحبة الكنيسة العظمى في طريقه إلى مسكنه المجاور. خلال ذلك دار بينهما الحوار التالي: "فلما بلغنا وسط الكنيسة رأيت صوراً من الخشب مطلية بأنواع [الألوان] محكمة الصنعة تخيل للناظر أنها تكلمه. فجعلت

oberkandl.com

أسألهم عنها وأسوق لهم المعلوم سوق المجهول معرضاً بهم ومستدرجاً للأسقف، فقلت وقد وقفت على صورة عيسى مصلوباً على خشبة الصلب ويداه مسمرتان وكان الدم يقطر منهما:

من هذا المسكين؟

قال لي: أو ما تعرفه؟

قلت: لا!

قال: هذا عيسى بن مريم.

قلت: فما له على هذه الحالة؟

قال: أو لست تعلم أن اليهود صلبوه؟

قلت: لا علم لي بذلك .

قال: فإنه كان من قصته كذا وكذا.

فقلت له: أليس هذا ما تزعمون أنه إله؟

قال: بلى!

قلت: فإن إلهاً تصلبه اليهود ولا ينتصر لنفسه؟

فعلم أني كنت أتجاهل مستدرجاً له الكلام، فقال: قصة المسيح من الخفاء والغموض بحيث لا يهتم إليها المسلمون ولا كثير من النصارى لدقتها وخفائها إلا من أيد بتأييد إلهي مثل علمائنا وإنما أنظاركم معشر المسلمين جلية لا تذكر ونحن قد خصنا الله تعالى بهذا السر الخفي واتخذناه عهداً يؤمن به عوامنا تقليداً لا علماً.

قلت: ليت علماءكم مثل عوامكم إذا كان يرجى لهم الفلاح وكيف لعوامكم بفهم ما تستحيله العقول وبيعة المعقول والمنقول، بل من أين ذلك لعلمائكم فضلا عن عوامكم؟

[قال]: فإن صحت لك الحكمة في ذلك هل تعتقده صواباً؟

obeikandl.com

قلت: إن قبله العقل وعضده النقل اعتقدته، وإن كان صوابكم في كل ما تزعمون ضربنا به الأرض!

قال: فإن الحكمة في صلب المسيح والتحامه في بطن مريم هي أن آدم [عليه السلام] لما خالف أمر الله بأكله من الشجرة استوجب بذلك النار هو وجميع ذريته من النبيين وغيرهم وأنهم كانوا في النار أجمعين بسبب ذنب أبيهم حتى صلب المسيح وأريق دمه، فحينئذ كسر أقفال النار فأخرجهم منها، فلما أراده من الصلب حل في بطن مريم والتحم فيها وصار إنساناً ذا جسم كسائر البشر واحتمل معاناة الصلب والقتل ليخلصنا من النار بحكمته وفضله إذ لم يمكن في الحكمة الإلهية أن يعاقب آدم على ذنبه لأنه عبد ومنزلته حطيطة بالنسبة إلى منزلة مولاه وسيده، فاقتضت حكمته أن يقتص من إله مثله فأخذ الجسم كما ذكر وصبر على صلب اليهود وامتهانهم ليخرج صفوة خلقه الأنبياء من الجحيم. فعل ذلك وأراده بفضل رحمته ورأفته فهو الإنسان التام من جهة الجسم و [الإله] التام من جهة الروح".قال المؤلف: "فلما ملأ أسماعي من التشنيعات الكافرية المستحيلة عقلاً ونقلاً ضحكت متعجباً.

فقال: مما ضحكت؟

قلت: ما كنت أحسب أن الجهل يبلغ بكم هذا المبلغ العظيم الذي لا يجوز على الحيوان البهيمي!".

المنظور الأوروبي الغربي لتاريخ العصور الوسطى

إن الرق والعبودية حول البحر المتوسط خلال القرون الوسطى كانت ظاهرة اجتماعية واقتصادية مهمة سمح بها وأقرها كل من الإسلام والمسيحية معاً. إن مؤسسة العبودية نتجت عنها حركة تجارية دولية لنقل العبيد من مختلف الجهات وفي الاتجاهات المتعددة. ولما كانت إسبانيا المسلمة في القسم الغربي من حوض البحر المتوسط البلاد الأكثر قوة من هذه الجهة إلى حوالي نهاية القرن الحادي عشر،

كان نقل العبيد الغربيين يتم في اتجاهها من شمال وشرق أوربا من جهة ومن إفريقيا السوداء من جهة أخرى. بالإضافة إلى ذلك كانت إسبانيا المسلمة تلعب أيضاً دور بلد العبور في بيع العبيد الأوروبيين في اتجاه شمال إفريقيا ومصر. غير أنه مع ظهور الحروب الصليبية صوب الأراضي المقدسة وكذا حروب الفتوح المسيحية ضد إسبانيا المسلمة وشمال إفريقيا ابتداء من نهاية القرن الحادي عشر حدث هاهنا تغير ملموس. إن الأساطيل المسيحية عندما سيطرت على البحر المتوسط عملت على تدعيم عملياتها العسكرية المتزايدة باستمرار في البر ضد الأراضي الإسلامية. ونتيجة لذلك بدأت تظهر في الأسواق الأوروبية أعداد مهمة من العبيد المسلمين.

كانت هناك في الواقع ثلاثة مصادر تزود أوروبا الغربية بالعبيد في القرون الوسطى: شن الحروب في إطار المعارك وحصار المدن ثم القرصنة البحرية وأخيراً عن طريق تجارة العبيد الدولية. إن القرصنة كانت في الحقيقة نوعاً من شن الحروب في البحر. ارتبطت بالقرصنة البحرية إجراءات ضغط كثيرة ضد جاليات التجار الأجانب والسفن التي تلجأ إلى اليابسة حيث تصادر بطاقمها ومسافريها وحمولتها، كما يصادر الأشخاص والسلع التي سيطر عليها نتيجة غرق سفينة من السفن. إن العلاقة بين الدول المسيحية والدول الإسلامية كانت في العادة علاقة حرب، ما عدا في حالات اتفاقات خاصة (كانت توقع في الغالب بين الطرفين لمدة معينة) فكان يتم تحديد نوع العلاقة بين الدول الإسلامية والمسيحية. في إطار هذه العلاقة كان اختطاف الأسرى في البحر وفي مناطق العدو مسألة جارياً بها العمل. وكان الحكام يمنحون سفن القرصنة، مقابل دفع مبلغ من المال، ترخيصاً يسمح لهم ببيع غنائم الأسرى في موانئ الربط كعبيد، إلا أن السفن التجارية أيضاً في حالة تعرضها لهجوم ما، كانت تتكشف في طريقها عن قراصنة إلى أن ينتهي الهجوم وتنقل الغنيمة بطريقة مشروعة إلى الأسواق المحلية، بعد أن يحدد المسؤولون الحكوميون أن الغنيمة ليس فيها رعايا الملك الذي تم عقد اتفاق وقف القتال معه. إن الاتفاقات الدولية بين الدول المسيحية والإسلامية كانت تؤدي في الأوساط الإسلامية إلى مشادات حول وضعية بعض المجموعات من الأسارى. هل يمكن مثلاً مساعدة

الأسارى المسلمين من بلاد أخرى بعد أن تمكنوا من النزول في ميناء مدينة بلد مسلم هرباً من سفينة مسيحية طاقمها من رعايا ملك عقد معه الحاكم المسلم معاهدة سلم؟ أم يجب إرجاع هؤلاء الأسارى المسلمين إلى السفينة التي فروا منها. يجيب ابن سيراج عن هذه القضية الأخيرة بالنفي.

فيما يتعلق بالطريق الأخيرة في تزويد أوروبا بالعبيد المسلمين، أي بواسطة تجارة العبيد الدولية فإنها كانت في النهاية مبنية على المصالح المشتركة للطرفين الإسلامي والمسيحي. ومن ثم ففي إطار القانون الدولي آنذاك، كانت ذات طبيعة "سلمية". إن هذه التجارة جلبت خاصة العبيد الإفريقيين بقوافلهم عبر الصحراء وعن طريق شمال إفريقيا إلى أوربا الجنوبية. وفيما بعد حوالي ١٤٧٠ حول اتجاه قوافل العبيد هذه إلى إفريقيا الغربية أي إلى الموانئ التي تم فتحها من طرف البرتغال بما في ذلك غينيا.

خلال القرون الوسطى المتأخرة أصبحت نسبة العبيد الذين يعيشون في دول أوروبا الجنوبية محدودة. إن علاقات القوى الدولية المتذبذبة هي التي كانت تحدد نسبة العبيد المسلمين بين مجموع العبيد الموجودين في بلد وزمن معينين. في صقلية مثلاً خلال القرن الثالث عشر كانت أغلبية العبيد ذات الأصول الإسلامية، غالباً ما تتحدر من إسبانيا المسلمة والمغرب. وفي القرب الرابع عشر انعكست الآية بحيث أصبح أغلب العبيد هناك، خاصة في صقلية من اليونان والتتار والألبان والبلغار والروس والترك. على عكس ذلك زاد في القرن الخامس عشر عدد العبيد الإفريقيين بسبب صعوبة المنفذ إلى أسواق العبيد في أوروبا الشرقية نتيجة تزايد سلطة الأتراك وسقوط القسطنطينية.

إن العبيد ذوي الأصول الإسلامية في جنوب أوروبا خلال القرون الوسطى المتأخرة نجدهم ممثلين في مختلف القطاعات الاجتماعية. نجدهم كفلاحين وحرفيين وخدم في الأديرة وعند الرهبان. نجدهم كذلك كخليلات ومطربات ومستخدمين في بلاط النبلاء. من البديهي أن هذه الجماعات لعبت دور صلة الوصل داخل اللقاء الثقافي المسيحي الإسلامي في القرون الوسطى خاصة في ميدان الثقافة

المادية والعلوم التقنية والموسيقى والشعر والقصص. في بعض الحالات يمكن إثبات هذا على أساس الوثائق، فمثلاً هناك حالة عبد مسلم حرره سيده شريطة تعليمه إياه فناً خاصاً في صباغة الحرير التي كان هذا العبد وحده على معرفة بها في حين كان هذا الفن غير معروف في البلاد المسيحية.

المعروف أن الغالبية العظمى من هؤلاء العبيد المحررين لم يكونوا يعودون إلى وطنهم الأصل. إن إدماجهم في المجتمعات الأوروبية تزامن مع عملية تنصيرهم وتعميدهم. غالباً ما كان العبيد المسلمون قبل بيعهم للمرة الأولى يتم إخضاعهم للتنصير وتلقيبهم بأسماء مسيحية. في الوثائق المتعلقة بهذه القضية كان غالباً ما تتم الإشارة إلى أصولهم الإسلامية بصورة عامة وأحياناً يتم ذكر اسمهم الإسلامي السابق. في أحيان أخرى ومع نهاية القرن الحادي عشر، كان التنصير والتسمية يحدثان بعد البيع الأول. في دير القديسة مريم في سبرادو Santa María de Sobrado في إقليم لاكورونيا كان العبيد المسلمون يتم تنصيرهم مباشرة بعد وصولهم، فكان المسمى "غالب" يطلق عليه "طوماس" وعلي يدعى لورينتيوس Laurentius إلخ أما وضعيتهم الدينية قبل تنصرهم فيتم الإشارة إليها في الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع "بالوثنيين" païens. غير أن هناك في الحقيقة عدداً من الأمثلة المعروفة عن العبيد الذين حافظوا على اسمهم الإسلامي مما يدل على أنهم لم ينصروا. إلا أن هؤلاء لم يكونوا يتمتعون بالحرية الكافية لممارسة شعائر دينهم. أما أطفال العبيد فكانوا ينصرون أيضاً مباشرة بعد ولادتهم.

إن التنصير الفعلي للعبيد المسلمين لم يكن في حقيقة الأمر نتيجة ضغط مادي مباشر –مما يتعارض ونصوص التعاليم الكنسية- بل كان نتيجة ثقل الضغط الاجتماعي بحيث كانت حظوظ تحسين الوضعية الاجتماعية للعبيد كالترقي مثلاً من وضعية عبد إلى قن أو التحرر تلعب دوراً مهماً في هذا المجال. إن هاتين الطريقتين في تحسين الوضعية الاجتماعية للعبد كانت ترد في البلاد المسيحية بعد عملية التنصير. غير أنه لم يكن يلتزم بهذا الشرط بدقة خاصة في مناطق من إسبانيا المسيحية حيث الأقليات الإسلامية كانت تتمتع بنوع من التسامح الديني المعتاد. في

قانون طرطوشة Codex de Tortosa كان التنصير يعتبر شرطاً لازماً لكل تحرير ولكنه لم يكن سبباً له. من ثم كان للمالك المسيحي الحق في بيع العبيد المسلمين المنصرين.

إن اليهود لم يكن يسمح لهم بامتلاك عبيد مسيحيين وكان العبيد المسلمون في يدهم يشكلون خطراً بسبب إمكانية تنصيرهم. من ثم كانت القاعدة السائدة في تجارة العبيد بين اليهود والمسيحيين التنصيص في العقود التجارية على أن البائع المسيحي يشترط على نفسه استعادة قبول العبد المسلم وإرجاع القدر المالي إلى المالك اليهودي في حالة ما إذا قرر العبد المسلم الدخول في المسيحية. إن التنصر كوسيلة ينهجها البعض للتحرير تثبتها العديد من الوصايا القروسطوية حيث أن العبيد المتعلق بهم الأمر غالباً ما يتم تحريرهم بعد عدد من السنوات في خدمة مالكيهم شريطة حدوث التنصير.

إن المسلمين الذين كانوا يعيشون بوصفهم أقلية تحت الحكم المسيحي المتسامح يطلق عليهم اسم Mudéjares، الاسم الذي يحتمل اشتقاقه من اللفظة العربية مدجن بمعنى المخضع أو المطوع. وبعد تنصيرهم مع بداية القرن ١٦ لم يعد يطلق عليهم Mudéjares بل أصبحوا يدعون الموريسكيون مما يفيد نوعاً من القدح، يكتب di Croce : "إن المسلمين جمعوا ثروات كبيرة ووضعوها في خزينة، وبعد وقت معين فتحوها وقدموها لمسلم ثقة يذهب إلى مختلف الأقاليم يفتدي بها الأسارى والعبيد المسلمين الذين يوجدون في السجن عند المسيحيين أو دول أخرى".

الإسلام التستّري

إن تنصير العبيد المسلمين كان يكرس إن صح القول ضرورة اندماجهم التام. كان الأمر يؤدي بهؤلاء العبيد المنصرين إلى الخضوع للقوانين والقواعد الكنسية بما في ذلك محاكم التفتيش حيث أصبح من الصعب المحافظة على عقيدتهم الإسلامية. إلا أن عمليات التنصير الواقعة تحت ضغط اجتماعي بين العبيد المسلمين

obeikandl.com

كانت غالباً ما تؤدي إلى الاستمرار في التشبث بالعقيدة الإسلامية بطريقة سرية. بعبارة أخرى أدى هذا الواقع إلى ظهور نوع من الإسلام التستري يمكن مقارنته بالإسلام الذي كان يمارسه الموريسكيون خفية في إسبانيا القرن السادس عشر قبل نفيهم في بداية القرن السابع عشر.

إن آثار مثل تلك الطرق الاعتقادية الإسلامية الخفية نجدها مثلاً في ملف محاكمة من بداية القرن الرابع عشر ضد فرسان الهيكل في الدولة البابوية. إن المستجوب غوالتيريوس Gualterius أحد فرسان الهيكل شهد أن زميله ألبرتوس Albertus، بعد انتمائه للطريقة، دعاه شريطة عدم إفشاء السر أن يجحد الاعتقاد بالمسيح. وعلى سؤاله: لكن بماذا سأومن إذن؟ أجابه ألبرتوس قائلاً: بذلك الإله الأكبر الوحيد الذي يعبده المسلمون. من أجل معرفة تجارب الحياة الدينية للأسارى والعبيد المسلمين في أوربا الغربية إلى حد ما يمكن الرجوع إلى الآثار الدينية الأصيلة النادرة التي تركها البعض منهم. هذا مثلاً شأن الديوان الشعري للشاعر الأندلسي عبد الكريم القيسي من القرن الخامس عشر حيث يحتفظ بمجموعة من القصائد التي ترجع إلى مرحلة أسره في المدينة البرتغالية آبرة. من تلك القصائد قصيدة في مدح النبي يختمها بدعاء للخلاص، نقتطف منها هذه الأبيات:

يا موثقاً بين العدى بقيوده ... يجني لديهم ذلة وصغارا

حكم الإله عليه بالأسر الذي ... ما في عظيم بلائه يتمارى

اصبر لحكم الله وارض بما قضى ... تكتب لديه من الأنام خيارا

وسل السراج بجاه أفضل مرسل ... لترى له عن عاجل أسرارا

فبجاهه رفع الإله شدائدا ... عن خلقه كانت تهول ونارا

وفي خاتمة قصيدته يتوجه الشاعر بدعائه إلى النبي نفسه قائلاً:

فاشفع لنا يا ربنا في كربنا ... يا خير هاد محتداً ونجارا

فلك الشفاعة في غد مخصوصة ... ولك الوسيلة في الجنان جهارا

صلـى عليك اللّه مـا بلـغ المنـــى   من أم قبـرك في القبـــور وزارا

وابتل قطر الزهر من قطـر الندى   ســرى النسيم يرقم الأشجــارا .

غربيون يعودون لاكتشاف الهوية المفقودة

بنـاء علـى مـا تقـدم تجـدر الإشـارة إلى أن علـى المؤرخين الأوربيين للمسيحية أن يأخذوا في اعتبارهم احتمـال وجود مسلمين متسترين بين المجموعـات المسيحية التي يدرسونها.. بالنسبة لإسبانيا يمكن إثبات وجـود هـؤلاء المسلمين بناء على المستندات العربية إلى حدود القرن التاسع عشر. وإن إرغـام هـذه الأقليات المسلمة على التنصير مـن أهـم العوامـل الـتي تفسـر لنـا النجـاح الـذي تلقـاه اليـوم الحركـات الإسـلامية الإحيائية في الغرب حيث يعاد اكتشاف الإسلام كهوية أصيلة مفقودة. هـذا لا يهـم فقط ما يدعى "الصحوة الإسـلامية" وسـط أقليـة مسلمة مـن أصـل إسباني خاصة في إقليم أندلوسيا ، بل يخص أيضاً "المسلمـين السود" في الولايات المتحدة الأمريكية. إلا أنه لا يهم في هذا المجال معرفة مـا إذا كانت هـذه الأقليات تنحدر مباشـرة أو لا مـن سلف مسلم. المهم هـو أن هـذه الأقليات المسلمة تجـد في الإسـلام عنصر إلهام بحيث تـرى فيـه استعادة لمجـد ثقافة وهويـة مهضـومتين، خاصـة وأن الضغط علـى الإسـلام ومحاربته في الغرب كان واقعاً تاريخياً.   هـكـذا تتـضح لنـا حـدود رؤيـة تاريخيـة حقيقية لوضعية الإسلام في غرب أوربا اليوم، وذلك من خلال دراسة مصائر الأسـرى والعبيـد المسلمين وخلفهـم وكـذا القمـع الممـارس علـى عقيـدتهم الإسـلامية. إن هـذا التاريخ الذي مـا يزال في معظمه مجهولاً يمكـن اعتبـاره مرحلـة تتصدر مـا قبـل تـاريخ الجاليـات الإسـلامية في غـرب أوروبـا منـذ نهايـة القـرن التاسـع عشـر وإلى اليـوم. مـن خـلال هـذه الرؤيـة التاريخيـة يتـضح كيـف أن عوامـل مثـل عـصر التنـوير والثـورة الفرنسية وإعـلان الحريـة الدينيـة كحـق إنسـاني وإلغـاء العبوديـة لعبـت دوراً جوهريـاً لانبعاث المرحلة الجديدة في تاريخ الإسلام الغربي التي نشهدها اليوم.